شخصية الآخرين في الأغاني العراقية

بقلم نازك الملائكة

في الحكايات العذبة التي سمعناها في طفولتنا ان فتاة يتيمة عثرت في تجوالها على أمير نائم نوما دائما وقد حكم غيب مقدر الا ينقذه من نومه الا فتاة ترضى ان تواصل السهر كل ليلة سبع سنين ترويّح له خلالها بمروحة مسحورة . وقد وقع هذا الامير من نفس الفتاة فسهرت سبع سنين وروحت له حتى دنا موعد استفاقته . ولكن النعاس غلب الفتاة الساهرة فى الدقائق الاخيرة فأغفت ، واذ ذاك برزت غريمة سوداء مجهولة وانتزعت المروحة من يدها وروّحت للامير دقائق ، وعندما استفاق ظن انها هي التي انقذته فتزوج منها . واستفاقت المنقذة الحقيقية فاذا كل مجهوداتها قد ضاعت .

ان هذه الحكاية الاسطورية الساذجة اعمق مما تبدو لنا اول وهلة ، ولعلنا نرثي كثيرا للفتاة اليتيمة ونحمد الله على ان قصتها خرافة لا حقيقة . غير اننا لو دققنا في موقفها وحللنا مشاعرها لوجدناها تتصل بحياتنا المعاصرة في العراق اتصالا وثيقا . اننا كلنا هذه الفتاة اليتيمة ، وشخصية الغريمة السوداء المجهولة تملأ حياتنا وتلقي ظلا غامقا على آمالنا وأفكارنا . وانها تنتصب شامخة في كل اغنية من اغانينا ، سواء منها ما تردد على شطآن دجلة والفرات فى جنوبي العراق او ما كتب في المدن المتحضرة التي نظنها تخرج تدريجيا عن الاطار النفسي القديم لثقافتنا الشعبية . مع انها في الواقع لا تفعل ذلك الا ظاهريا وحسب . واذا كانت الفتاة اليتيمة قد احست بالحزن والثورة على غريمتها السوداء ، فان اغانينا لم تزل حتى اليوم تردد تلك الحسرة التي ملأت قلبها وهي ترى جهودها الطويلة تتبدد ، وكأن كل لحن من الحاننا قد نذر نفسه للثأر من تلك الغريمة .

ان شخصية الغريمة السوداء التي لا يملك قلبها حنان الانسانية ، لم تزل هي الشخصية الكبرى في الاغاني العراقية التي يرددها الشعب . ولكنها ، طبعا ، لا تتخذ شكل فتاة سوداء ذات مروحة ، وانما تلبس ثيابا شعبية من حياتنا المعاصرة ، فنحن نجدها متخفية في ثياب (العذول) و (اللائم اللذين تكثر اغانينا الشكوى منهما ، وقد تتخذ هيئة (الواشي) و (النمام) اللذين يعكران على المحب سعادته بنقل انبائه الى حيث يجب الا تنقل . ومن اقنعتها الكثيرة شخصية (الحسود) التي لا ينقطع شعور المحب العراقي بها . وفى احيان لا تندر تظهر الغريمة السوداء متخفية في ثياب الشخصية العراقية التي تسميها اغانينا « حافر البير » وهو شخص يوقع بغيره ويحبك للدسائس . ان هؤلاء كلهم : العذول ، والواشي ، والنمام ، والحسود وحافر البير ليسوا الا اوجها متعددة لشخصية الغريمة السوداء في حكاية الفتاة اليتيمة ، فان وظيفتهم الاولى هي التعكير على المحب الذي يبقى شاكيا من سوء المعاملة التي يلقاها منهم .

غير ان الغريمة السوداء تظهر في اغانينا على صور اخرى اكثر خفاء ، وقد تبرق عيناها خلف تلك الاغاني الوديعة التي يشكو فيها المحب من اهله الذين يتدخلون في شؤونه العاطفية ويحولون بينه وبين حبيبته . وبعد فمن هم « هلي يا ظِلاّم هلي (١) هؤلاء ؟ اليسوا هم الغريمة السوداء التي تجيء لتحطم الامال في اللحظة الاخيرة ؟ انهم صنف آخر من العراقيل . والنتيجة ان الفتاة اليتيمة تخرج في كل مرة مدحورة وتلوذ بالغناء الحزين الذي ما زال يردده سواق السفن العراقية وهم ينحدرون فى الفرات من قرية الى قرية بين الشواطيء الساهمة المثقلة بالنخيل .

ان هذه الظاهرة الراسخة في اغانينا ، ظاهرة الغريمة السوداء وتأثيرها القدري المحتوم فى حياة المحبين تلفت النظر . فبدلا من ان تقتصر الاغاني العراقية ، كأغاني الشعوب الاخرى ، على تقديم شخصية المحب بآماله وعواطفه وافكاره ، نجدها تقدم شخصا اقوى منه يدحره ويحول الحانه الى تفجع ولوعة . ان المحب في أغانينا شخصية ضعيفة تكثر الشكوى من العذول ، ويدحرها الحساد والوشاة ، ويلعب بها حفار آبار ازليون لارحمة لهم . انهم دائما الاخرون ... هؤلاء الاخرون الذين حالوا دون ان يحقق احلامه . لقد كاد يصل لولا النمام ،.. لولا اهله الذين منعوه ، .. لولا العذول المغرض ... لولا هذه الغريمة السوداء اللئيمة التي تدحر العاشق في كل حالة وترسله يغني تحت شجرة عند ضفة نهر بارد الشعور لا يشاركه الحزن .

وهكذا نجد اغانينا تقدم محبا يشعر بسطوة اخرين على حياته شعورا لا مثيل له في اغاني الشعوب الاخرى . انه يحس بان قوة اخرى اعظم منه تلعب بمصيره ، وهو يتضاءل ازاء هذه القوة حتى يفقد قدرته على السلوك ويتحول الى السلبية . وانه لحق ان المحب العراقي يبدو في اغانينا وكأنه يرى المجتمع كله معاديا له ، واقفا بالمرصاد ينتظر ان يخيب في حبه لكي ينهال عليه لوما ويذكره

(١) مطلع اغنية عراقية شائعة

بالنصائح التي لم يصغ اليها . فالمجتمع هو الدائرة الاوسع للاخرين ، والمحب يبقى وحيدا في زاوية اشبه بغزال تطارده نبال الصيادين .

والواقع ان في وسعنا ان نصوغ قانونا عاما للاطار الذي تدور في نطاقه اغانينا ، ففي كل اغنية شخصان اثنان يقوم بينهما صراع دائم : شخصية العاشق وهو يحاول ابدا ان يصل الى حبيبته ، وشخصية الغريمة السوداء التي ينوب عنها العذول والواشي وحافر البير وهلي يا ظلام هلي .

واذا اردنا ان نمضي ابعد قليلا ونحاول ان نربط بين هذه الظاهرة الغريبة وحياتنا العامة في العراق ، فان علينا ان نحلل طبيعة الغريمة السوداء ومسلكها . والسؤال الاول الذي نلقيه هو هذا : من هو هذا العذول ؟ ولماذا يأخذ على عاتقه ان يعذل ؟ واول مايلفت نظرنا ان العذال في اغانينا لا يعذلون عن طمع او منافسة ... انهم اشخاص اخرون لا شأن لهم معنا في الغالب ، وهم لا يملكون دوافع حياتية ملزمة تسوقهم الى العذل او الوشاية ، وانما يعذلون ويشون دون غرض ، وكأن الايذاء فنهم الجميل الذي يحبونه لذاته ويتأنقون فيه . غير ان هذا التعريف الذي تقدمه اغانينا للعذول يجعل وجوده غير مبرر . وليس من المعقول في علم الاجتماع ان توجد في مجتمع ما شخصية عامة كشخصية العذول عندنا دون ان تكون في ظروف المجتمع مبررات منطقية لوجودها تفسح لها مكانا وتمنحها ما تملك من قوة . وهكذا نجدنا نجابه سؤالنا الاول من جديد : من هو العذول ؟ ولماذا يعذل ؟

وربما استطعنا ان نجد جوابا للسؤال بان ندرس العذول من وجهة نظر المحب ، واغانينا تعطينا اجوبة وافية في هذا الشأن ، فالغريمة السوداء توصف ابدا بالقسوة والظلم والتجني ، وليس في اغانينا قط اغنية حب للعذول

وكيف يبدو العذول للمحب ؟ انه قوة شريرة تقف بالمرصاد ، ويد توزع الدموع والغصص. والحق انه ليس في وسعنا ، حتى نحن الذين نقف حكاما في القضية ، ان نجزم بان العذول طيب القلب في زجره ولومه مهما كانت اسبابه الدافعة . اننا لا ننكر ان من الممكن ان نحب الاخرين بحيث ننصح لهم بما يكرهونه وهو خير لهم من وجهة نظرنا نحن . غير انه من السخف ان نمضي في هذا اذا استمر يسبب لهم الدموع والعذاب والقلق . ان المصلحة الاولى للانسان ان يكون سعيدا ، وكل نصيحة منا تنتهي به الى العذاب ليست نصيحة مخلصة ، لا من وجهة نظر الفرد ولا من وجهة نظر الانسان عامة . فما من شيء يغذي الانسانية وينمي روح الخير والجمال فيها كالسعادة . ان الفرح قوة وخصوبة واندفاع نحو الانسان الكامل ، ومن ثم فما اشد حماقة العذول وهو يردع المحب وينهاه عن ان يكون سعيدا .

على اننا ، ونحن نحاول ان نعدل في الحكم على هذه القضية الطريفة التي تثيرها أغانينا العراقية كل يوم ، نود ان ندرس عواطف العذول ايضا،وانه لمؤسف حقا ان العذول لا يغني قط كما يغني المحب ، فلو غنى وكشف لنا عن مشاعره لربما فاز بكثير من مشاركتنا وعطفنا . فما الذي يجعل العذول عذولا ؟ هل من المعقول انه شر صرف في نفسه لا غرض له غير الايذاء ؟ ان الشر ليس مادة الحياة الانسانية رغم كثرة وجوده فيها ، وانما يقع في الحالات التي لا نملك فيها قدرتنا على الاختيار .

واول ما نجزم به ان العذول ليس انسانا سعيدا ، ولو كان سعيدا لانشغل بافراحه ولم يجد وقتا لجمع العبرات من اعين المحبين . ان العذل ليس مظهر فراغ وحسب وانما هو ايضا دليل الم . والايذاء لا يأتي من انسان سعيد قط وانما يصاحب الضعف وقلة الثقة بالنفس . اننا نساعد الاخرين عندما نحس اننا نملك مصيرنا، وفي وسعنا ان نحب بكرم وتدفق ، وكأن الشعور بالقوة يجعلنا نفيض ونغدق من كياننا على الحياة . واما عندما نكون محرومين ، شاعرين بالعجز وبان ايدينا مغلولة لا تملك ان تمنح ، فاذ ذاك يصبح الايذاء قريبا من الحاجة والضرورة . او لنقل ان الكراهية تجنح الى ان تصبح التعبير الوحيد عند الانسان الذي لا يستطيع ان يحب ، وهكذا نجد العذول ان الايذاء قد بات وسيلة حياة بالنسبة له . والحق اننا نشك كثيرا في ان العذول ليس محبا فاشلا في الاصل ...

*

ومهما تكن مشاعر العذول ، فلا بد لنا ان ننبه في ختام بحثنا القصير هذا الى انه في تعبيره عن دوافعه الشخصية المحدودة ، لا يخرج عن ان يكون اداة مقصودة يحكّمها المجتمع في حياة المحبين ، وذلك لانها وجهة نظر المجتمع ان يردع المحب ويحرم من الحرية . والعذول ، بهذا الاعتبار ، ليس اقل من شرطي مسلح يسلطه المجتمع على المحب ليحول بينه وبين السلوك .

وهكذا نجدنا نميل الى تعديل معادلتنا الاولى التي وضعنا فيها **المحب** في مقابل **العذول** ، فها نحن نصل الى معادلة اوسع تقف فيها **الحياة** ، باندفاعها وحرارتها وتدفقها ، في مقابل **ضمير اجتماعي** صارم لا نحاول ان نحكم عليه هنا . ان المجتمع العراقي يحكم بلا تردد للغريمة السوداء وليس عطفه على الفتاة اليتيمة الا كلمات ، ولسنا ندري بعد اذا كانت الاسطورة تستطيع ان تتحقق في حياتنا المعاصرة ، فيفطن الامير النائم اخيرا الى المؤامرة ويذهب باحثا عن فتاته التي انقذته من سباته الطويل ...

بغداد **نازك الملائكة**